الفصل الثاني

إثبات وجود الخالق

obeikandl.com

إثبات وجود الخالق

رغم أنه لا يوجد في القرآن مناقشة صريحة لمنكري الخالق إلا إن الإيمان بوجود خالق لهذا الكون قضية ضرورية لا مساغ للعقل في إنكارها، فهي ليست قضية نظرية تحتاج إلى دليل وبرهان، ذلك لأن دلالة الأثر على المؤثر يدركها العقل بداهة، والعقل لا يمكن أن يتصور أثرًا من غير مؤثر، أي أثر ولو كان أثرًا تافهًا فكيف بهذا الكون العظيم؟ ولذلك لم يناقش القرآن هذه القضية، حتى حينما أورد إنكار فرعون لرب العالمين يوم أن قال: ﴿**وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الشعراء: ٢٣]، و﴿**مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي**﴾ [القصص: ٣٨]، ﴿**يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ۞ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا**﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

فكان موسى عليه السلام لا يعير اهتمامًا لهذه الإنكارات وتعامل مع فرعون على أساس أنه مؤمن بوجود الخالق فتراه يقول له مثلًا: ﴿**قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُورًا**﴾ [الإسراء: ١٠٢]. وقد عزا القرآن الكريم هذا الإنكار إلى التكبر والعناد، فقال:

﴿**ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۞ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ۞ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ**﴾ [المؤمنون: ٤٥ – ٤٧]، وأوضح أكثر فقال: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا...**﴾ [النمل: ١٤].

إن البيئة التي أنزل فيها القرآن الكريم كانت وثنية في الغالب وكتابية في بعض القرى أو بعض الأشخاص. والكتابيون لا ينكرون الخالق، وأما الوثنيون فمع عبادتهم للأوثان إلا أنهم كانوا يؤمنون بالخالق سبحانه، وسجل القرآن هذا لهم في أكثر من موضع[1]، قال تعالى: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ**﴾ [لقمان: ٢٥]، وقال تعالى:

(١) المحكم في العقيدة، د. محمد الكبيسي صـ٦٥ ، ٦٦.

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢]، ولهذا لم يحتج القرآن أن يفتح الموضوع مع هؤلاء الناس، بل حتى خارج هذه البيئة لم يعرف هناك منكر للخالق يقول الشهرستاني: أما تعطيل العالم عن الصانع العليم القادر الحكيم فلست أراها مقالة لأحد، ولا أعرف عليها صاحب مقالة إلا ما نقل عن شرذمة قليلة من الدهرية ولست أرى صاحب هذه المقالة ممن ينكر الصانع، بل هو معترف بالصانع، فما عُدت هذه المسألة من النظريات التي قام عليها دليل[١].

ومع خلو القرآن من مناقشة صريحة لمنكري الخالق إلا أنه تضمن أدلة كثيرة لإثبات الخالق، غير أنها جاءت في الغالب لإثبات مسائل أخرى، كالوحدانية والنبوة والبعث[٢]، ومن هذه الأدلة التي ذكرت في القرآن الكريم:

أولاً: دليل الخلق:

وخلاصة هذا الدليل، أن هذا الخلق بكل ما فيه شاهد على وجود خالقه العلي القدير سبحانه، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۞ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور:٣٥، ٣٦]، يقول لهم: أنتم موجودون هذه حقيقة لا تنكرونها وكذلك السموات والأرض موجودتان ولا شك وقد تقرر في العقول أن الموجود لا بد من سبب لوجوده، وهذا يدركه راعي الإبل في الصحراء فيقول: البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير؛ فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج تدل على العليم الخبير. ويدركه كبار العلماء الباحثين في الحياة والأحياء، يقول أحدهم: إن الله الأزلي الكبير العالم بكل شيء والمقتدر على كل شيء قد تجلى لي ببدائع صنعه حتى صرت دهشًا متحيرًا فأي قدرة وأي حكمة وأي إبداع أودعه مصنوعات يده صغيرها وكبيرها[٣]. وهذا الذي أشارت إليه الآية هو الذي يعرف عند العلماء باسم: قانون السببية، هذا القانون يقول: إن شيئًا من «الممكنات» لا يحدث بنفسه من غير شيء، لأنه لا يحمل في طبيعته السبب الكافي لوجوده ولا يستقل بإحداث شيء، لأنه لا يستطيع أن

(١) نهاية الإقدام للشهرستاني صـ ١٢٣، ١٢٤.
(٢) المحكم في العقيدة صـ ٦٦.
(٣) مع الله للشيخ حسن أيوب صـ ٧٦.

يمنح غيره شيئًا لا يملكه هو[1].

وبهذا الدليل كان علماء الإسلام ولا يزالون يواجهون الجاحدين، فهذا الإمام أبو حنيفة يعرض له بعض الزنادقة المنكرين للخالق، فيقول لهم: ما تقولون في رجل يقول لكم: رأيت سفينة مشحونة بالأحمال مملوءة من الأنفال، قد احتوشتها في لجة البحر أمواج متلاطمة ورياح مختلفة، وهي من بينها تجري مستوية ليس لها ملّاح يجريها ولا متعهد يدفعها، هل يجوز في العقل؟ قالوا: هذا شيء لا يقبله العقل، فقال أبو حنيفة: يا سبحان الله إذا لم يجز في العقل سفينة تجري في البحر مستوية من غير متعهد ولا مجر فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وتغيّر أعمالها وسعة أطرافها وتباين أكنافها من غير صانع ولا حافظ، فبكوا جميعًا، وقالوا: صدقت وتابوا[2].

هذا القانون الذي سلمت به العقول وانقادت له هو الذي تشير إليه الآية الكريمة: ﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ**﴾ [الطور: ٣٥] وهو دليل يرغم العقلاء على التسليم بأن هناك خالقًا معبودًا، إلا أن الآية صاغته صياغة بليغة مؤثرة فلا تكاد الآية تمس السمع حتى تزلزل النفس وتهزها[3].

قال الشاعر:

فـــوا عجبـــا كيـــف يـــعصى الإلـــه ... أم كيـــــف يجحـــــده الجاحـــــد

وفي كـــــل شيء لـــــه آيـــــة ... تـــــدل عـــــلى أنـــــه واحـــــد

لقد تناول القرآن الكريم قضية الخلق والتدبير تناولًا فريدًا وعني بتوجيه العقول إلى النظر في آفاق الكون وآيات الله الكثيرة، وأهاب بالعقل أن يستيقظ من سباته، ليتفكر في ملكوت السموات والأرض وما أودع فيها من الآيات، ويكرر القرآن ذلك في أساليب متنوعة ليرى هذا الإنسان ويسمع في آفاق الكون ما يقوده إلى الإيمان بخالقه سبحانه وتعالى، ويعلم أن هذا الكون هو من صنع الله الخالق المدبر المستحق للعبادة وحده لا شريك له[4].

---

(١) العقيدة في الله، د. عمر الأشقر صـ ٦٩.

(٢) مع الله صـ ٦٨ حسن أيوب، العقيدة في الله صـ ٧٠.

(٣) العقيدة في الله للأشقر صـ ٧١.

(٤) حماية الرسول حمى التوحيد للغامدي صـ ٢١٦.

ثانيًا: دليل الفطرة والعهد:

إن معرفة الخالق والإقرار بوجوده تبارك وتعالى وربوبيته أمر بديهي مغروس في نفوس الناس وفطرهم إذ لو تُرك الإنسان في مكان خال لا يوجد فيه أحد بعيدًا عن كل المؤثرات الخارجية وعن كل الشوائب العقدية، لاستطاع بفطرته أن يعرف أن لهذا الكون خالقًا مدبرًا ومتصرفًا، ثم بفطرته يتوجه لمحبة خالقه ومن هنا نعلم أن من أنكر وجود الخالق جل جلاله من الملحدين إنما أُتوا من انحراف فطرهم ومن تأثير الشياطين عليهم وتلاعبهم بهم ودليل الفطرة هذا دل عليه القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، قال تعالى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [الروم: ٣٠]. فالفطرة المقصودة هنا الإسلام، فالله جل جلاله فطر الناس على دين الإسلام والتوحيد[(١)]، وقال ﷺ: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تتبع البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء**»[(٢)]، وفي الحديث القدسي يقول تبارك وتعالى: «**إني خلقت عبادي كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم**»[(٣)]. ومعنى (حنفاء) أي: مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام[(٤)]. ومن أجل أهمية الفطرة في دلالة الناس على ربهم وتعريفهم به كان ﷺ إذا أصبح أو أمسى يقرر أنه يصبح ويمسي على هذه الفطرة فطرة الإسلام وأنها لم تتأثر بالمؤثرات والعوارض الخارجية من نزغات الشيطان ووساوسهم، فقد ورد عنه ﷺ أنه كان يقول إذا أصبح وإذا أمسى: «**أصبحنا أو أمسينا على فطرة الإسلام وعلى كلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا محمد ﷺ وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين**»[(٥)]. فقد أكد على سلامة الفطرة من الانحراف بقوله. وعلى كلمة الإخلاص وهي الشهادة: «لا إله إلا الله وبقوله. **وعلى دين نبينا محمد** ﷺ وهو الدين الإسلامي، وبقوله: **وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفًا مسلما**. أي مائلًا عن كل ما يخالف

(١) المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار (١/ ٣٦٨).
(٢) البخاري، ك الجنائز رقم ١٢٩٣.
(٣) مسلم رقم ٢٨٦٥.
(٤) تفسير القرطبي (٢٠/ ١٤٤).
(٥) السلسلة الصحيحة للألباني رقم ٢٩٨٩، مسند أحمد (٣/ ٤٠٦، ٤٠٧).

هذه الفطرة من الأديان والعقائد الفاسدة التي تنكر الرب سبحانه وتعالى أو تزعم أن معه شريكًا في ملكه أو عبوديته إلى الإسلام الخالص، فإذا حقق توحيد الألوهية كان توحيد الربوبية محققًا، لأن توحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية، وبذلك تكون الفطرة قد دلت على توحيد الربوبية[1].

وهذه الفطرة التي فطر الله عليها عباده لها صلة وارتباط وثيق بالعهد الذي أخذه الله سبحانه وتعالى على بني آدم وهم في عالم الذر كما أشار الله بقوله: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۞ أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

فهذا العهد والميثاق الذي أخذه الله جل جلاله على الناس مضمونه الاعتراف والإقرار بربوبيته، وأشهدهم على أنفسهم فشهدوا، فمن الناس من حافظ على ذلك العهد وقام بمقتضاه ولازمه من عبادة ربه وحده لا شريك له وتوحيده. وصدق رسل الله وآمن بهم وبما جاءوا به، ومن الناس من تغيرت فطرته وانحرفت واجتالته الشياطين - والعياذ بالله - فنسي ما شهد عليه وما جبل عليه من الإقرار بربوبية الله عز وجل فوقع في الكفر والإلحاد، مع أن الله سبحانه لم يترك عباده سدى بل أرسل لهم الرسل وأنزل معهم الكتب ليذكّروا الناس بهذا الإشهاد وهذا العهد والميثاق، ولكي يبقى المسلم متذكرًا هذا العهد الذي أخذه الله عليه في عالم الذر فقد علم رسول الله ﷺ أصحابه ذكرًا يقولونه في الصباح والمساء ففي الحديث الصحيح عنه ﷺ قال: سيد الاستغفار أن يقول العبد: «**اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء بنعمتك علي، وأبوء بذنبي، فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**[2]. **فقوله: وأنا على عهدك: أي: ما عاهدتك عليه من الإيمان بك والإقرار بوحدانيتك، لا أزول عنه**»[3]، قال ابن حجر: وقال ابن بطال قوله: وأنا على عهدك

(١) المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار (١/ ٣٧٠).
(٢) البخاري، ك الدعوات رقم ٥٩٤٧.
(٣) نتائج الأفكار في شرح حديث الاستغفار صـ ٢٤٠.

ووعدك يريد العهد الذي أخذه الله على عباده حيث أخرجهم أمثال الذر وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم فأقروا له بالربوبية وأذعنوا له بالوحدانية، وبالوعد ما قاله على لسان نبيه[1]، فهذا الذكر العظيم من داوم عليه يوميًا ولازمه حفظ نفسه - بإذن الله - من انحراف فطرته وتغيّرها ووفّى بعهده الذي بينه وبين ربه[2].

ثالثًا: دليل الآفاق:

قال تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ [فصلت:٥٣]. فقوله: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ**﴾ أي: علامات وحدانيتنا وقدرتنا[3]، وقوله ﴿**فِي الآفَاقِ**﴾ يعني أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والرياح والأمطار والرعد والبرق، والصواعق والنبات[4]، وغير ذلك مما فيها من عجائب خلق الله، وفي حديث العلماء عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ما يدل على آيات الله في الآفاق والتي منها:

١- **نقص الأوكسجين في الارتفاعات:** قال تعالى: ﴿**فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ [الأنعام: ١٢٥]، تنص هذه الآية الكريمة على أن الإنسان عندما يصّعّد في السماء أي يرتفع في أعالي الجو يضيق صدره ويشعر بالاختناق، وهذه حقيقة علمية سببها أن نسبة الأوكسجين تقل كلما ارتفعنا إلى أعلى كما يقل الضغط الجوي، وهذان السببان يجعلان الإنسان يشعر بضيق التنفس.

٢- **حركة النجوم والكواكب في مداراتها:** كان الناس يرون أن الأرض مركز الكون ويدور حولها الشمس والقمر والنجوم السيارة، ويرون نجومًا ثابتة طوال السنة فيصفونها بالثبات، ثم حدث في عصر «جاليلو» رأي يعتبر أن الأرض هي التي تدور حول الشمس، والشمس هي مركز الكون، أما القرآن الكريم فقد رفض قبل ذلك جميع الآراء التي تزعم

(١) فتح الباري (١١ / ٩٩).
(٢) المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار (١ / ٣٧٣).
(٣) تفسير القرطبي (١٥ / ٣٧٤).
(٤) المصدر نفسه (١٥ / ٣٧٤).

أن للكون مركزًا ثابتًا، قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:٤٠]. وكان ذلك في عصره سبقًا علميًّا[١]. وقال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۞ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥، ٧٦]. فقد وجد العلماء أن مواقع النجوم ومساراتها ليست اعتباطية، فالكوكب وُضع في مسار بحيث لا تؤدي قوى التجاذب الكونية الكثيرة والقوى النابذة الناشئة عن الدوران إلى اضطراب كوني، ولقد اختير له المسار الذي يحقق له التوازن بين تلك القوى الكثيرة. ووجد العلماء أيضًا أن أبعاد المجموعة الشمسية تتبع سلسلة حسابية، وأنى للعربي الجاهلي الذي كان يرى النجوم مبعثرة في صفحة السماء أن يعرف من تلقاء نفسه أن لمواقعها شأنًا عظيمًا[٢].

٣- دوران الأرض والجبال: قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل:٨٨]، لقد كان الناس قديمًا يرون أن الأرض وجبالها ثابتة، بل يضربون المثل بثباتها، فجاء القرآن ليخالف ما ألفه الناس واستقر في أذهانهم، وتحدث عن ظاهرة كونية، فقال عن الجبال أنها تمر مر السحاب، أي أن الجبال كالسحاب، فكما أن السحاب لا يتحرك ذاتيًّا إلا إذا كان هناك شيء يدفعه إلى التحرك، والذي يحرك السحاب ويدفعه الرياح، فكذلك الجبال لا تتحرك بنفسها، لأنها أوتاد الأرض ولكن هي تتحرك، وحركتها تابعة لحركة الأرض، فالأرض تتحرك وتدور، وإلا فكيف تتحرك الجبال وتمرّ مرّ السحاب، وهذا من صنع الله الذي أتقن كل شيء حينئذ يكون هناك يقين ثابت[٣].

٤- حاجز بين بحرين مالحين: قال تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۞ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۞ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:١٩-٢٢].

تتحدث الآيات الكريمة عن بحرين يتلاقيان وفي مكان تلاقيهما يوجد حاجز، والظاهر أنها تتحدث عن بحرين حقيقيين مالحين وليس عن بحر ونهر لأنه قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾.

---

(١) البراهين العلمية، عبد المجيد العرجاوي صـ ١٠٥.
(٢) البراهين العلمية صـ ١٠٦.
(٣) تأملات في العلم والإيمان صـ ١٧٨.

والمرجان: هو الخرز الأحمر، لا يخرج إلا من المياه المالحة، فالآية الكريمة إذن تتحدث عن حاجز حقيقي بين بحرين مالحين في مكان تلاقيهما، والبحران يتلاقيان في المضائق، لأنه إن لم يكن هناك مضيق فليس من مسوغ لاعتبارهما بحرين، بل يكونان بحرًا واحدًا، إن هذا الذي أثبتته الآية الكريمة مستغرب جدًّا في عرف الناس، إذ الانطباع السائد أن المياه المتلاقية لا حواجز بينها، وما كان أحد يعرف هذه الحقيقة ولا تخطر له على بال إلى أن اكتشفت عام ١٩٦٢م، وثبت ما قاله القرآن الكريم كحقيقة مدهشة[١].

٥- اهتزاز الأرض وزيادتها بالمطر: قال تعالى: ﴿**وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**﴾ [الحج:٥]. إن العلم يؤكد أن الأرض تهتز فعلًا بنزول الغيث عليها، فالحبوب والبصيلات والدرنات والحويصلات والجراثيم كلها تبدأ بالحركة والانقسامات الخلوية وامتصاص الماء وتحليل الغذاء المعقد إلى وحدات أقل ارتباطًا وأكثر عددًا وأكبر حجمًا، وبامتلاء مسام الأرض بالماء تتحرك جزيئات الطين وتبدأ عملية تأين عجيبة في جزيئات التربة، وتنشط الديدان الأرضية في شق الأنفاق الأرضية وابتلاع كميات كبيرة من التربة المتلاصقة وإخراجها بعد ذلك مفككة، كل هذه النشاطات تؤدي إلى زيادة حجم التربة ويمكننا رؤية صورة مصغرة لهذه العمليات بتخمير العجين وزيادة حجمه نتيجة نشاط خلايا الخمائر، وفي التربة تحدث ضروب كثيرة لمثل هذا النشاط، من كل ما سبق نجد التوافق بين ما عرفه العلم وما وصفه القرآن الكريم[٢].

٦- أوهن البيوت: قال تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾ [العنكبوت: ٤١]. إن قوله سبحانه ﴿**لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾ وقوله بعد ذلك ﴿**وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ**﴾ [العنكبوت:٤٣]، يشيران إلى أن وهن بيت العنكبوت المتحدث عنه وهن غير ظاهر ومعروف لدى عامة الناس، وقد ضرب هذا الوهن مثلًا لموالاة الكافرين بعضهم لبعض، فماذا وجد العلماء عند دراسة العنكبوت؟ وجدوا أن

(١) البراهين العلمية صـ ١١١.
(٢) المصدر نفسه صـ ١٢٧.

الروابط بين أفراد العنكبوت في غاية التفكك، فالأنثى كثيرًا ما تأكل الذكر بعد الإلقاح وقد تأكل أبناءها، والأبناء يأكل بعضهم بعضًا، فهو بيت متفكك متداع وذلك مثل موالاة الكافرين بعضهم بعضًا[1].

والأمثلة في البراهين العلمية على صحة العقيدة الإسلامية كثيرة، ذكرت في كتب بحثت هذا الموضع، كرحلة الإيمان في جسم الإنسان، د.حامد أحمد حامد، والبراهين العلمية على صحة العقيدة، لعبد المجيد العرجاوي، ووحدانية الله تتجلى في وحدة مخلوقاته للأستاذ عمر أحمد الهواري، وغيرها كثير لمن أراد التوسع.

رابعًا: دليل الأنفس:

قال تعالى: ﴿**وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**﴾ [الذاريات:٢١]. ولما كان أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه دعاه خالقه وبارئه ومصوره وفاطره من قطرة ماء إلى التبصر والتفكر في نفسه، فإذا تفكر الإنسان في نفسه استنارت له آيات الربوبية وسطعت له أنوار اليقين، واضمحلت عنه غمرات الشك والريب وانقشعت عنه ظلمات الجهل فإنه إذا نظر في نفسه وجد آثار التدبير فيه قائمات، وأدلة التوحيد على ربه ناطقات، شاهدة لمدبره، دالة عليه مرشدة إليه[2]، وإليك بعض البراهين العلمية المتعلقة بالإنسان وخلقه:

١- الإحساس والجلد:

قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ**﴾ [النساء:٥٦]، وهذه حقيقة كونية وهي أن موطن الإحساس والألم في الإنسان هو الجلد، فالكافرون يعذبون عن طريق تبديل الجلد أو تغييره، وذلك ليذوقوا العذاب، فالإذاقة حسب القرآن محلها الجلد وقد بين التشريح المجهري للجلد أنه عضو غني بالألياف العصبية التي تقوم باستقبال ونقل جميع أنواع الحس من المحيط الخارجي، وذلك عن طريق طبقات الجلد «البشرة، الأدمة، النسيج تحت الأدمة» وهي تنقل حس الألم، والحرارة والبرودة، والضغط، وحس اللمس، فالقرآن

(١) البراهين العلمية صـ١٢٨.
(٢) التبيان في أقسام القرآن لابن القيم (١ / ١٩٠).

ينبهنا إلى هذه الحقيقة الكونية ويقول: إن الله – سبحانه – كلما أراد أن يذيق الكفار بدّل جلودهم التي احترقت، وماتت فيها الألياف العصبية بجلود سليمة لم تحترق، ليذوقوا العذاب مرة أخرى وعندما يأتي التشريح المجهري، ليقول: إن الألياف العصبية تكمن في الجلد نقول: إن الله – سبحانه وتعالى – قد أخبرنا بهذه الحقيقة في القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنًا[1].

٢- البصمات وتحديدها لهوية الإنسان:

قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ ۞ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: ٣، ٤].

لقد توصل العلم إلى سر البصمة في القرن التاسع عشر، وبين أن البصمة تتكون من خطوط بارزة في بشرة الجلد تجاوزها منخفضات، وتعلو الخطوط البارزة فتحات المسام العرقية، تتمادى هذه الخطوط وتتلوى، وتتفرع عنها تَغَصُّنات وفروع، لتأخذ في النهاية وفي كل شخص شكلًا مميزًا، وقد ثبت أنه لا يمكن للبصمة أن تتطابق وتتماثل في شخصين في العالم، حتى في التوائم المتماثلة التي أصلها من بويضة واحدة، يتم تكوُّن البنان في الجنين في الشهر الرابع،وتظل ثابتة ومميزة له طوال حياته ويمكن أن تتقارب بصمتان في الشكل تقاربًا، ولكنهما لا تتطابقان البتة، ولذلك فإن البصمة تعد دليلًا قاطعًا، ومميزًا لشخصية الإنسان معمولاً بها في كل بلاد العالم، ويعتمد عليها في تحقيق القضايا الجنائية، لكشف المجرمين واللصوص وقد يكون هذا هو السر في أن الله – سبحانه وتعالى – خص البنان بالذكر ليبين للإنسان هذين الأمرين:

– السر المختفي في البنان الذي لم يعلم أمره إلا في عصر الكشوف العلمية.

– القدرة الفائقة على إعادة خلق الإنسان بصورته وخلقته التي كان عليها[2].

والدعوة مفتوحة للإنسان في التفكر في أجهزته العضوية كالجهاز الهضمي والنفسي والدموي وغيرها في جسم الإنسان، وفي التأمل في عالم المشاعر والأحاسيس والأفكار والعقائد.

(١) تأملات في العلم والإيمان صـ ١٨٠.
(٢) المصدر نفسه.

خامسًا: دليل الهداية:

قال تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى:١-٣]، وقال تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، والمقصود بالهداية المرادة في الآيات السابقة، إعطاء كل مخلوق من الخلق والتصوير ما يصلح به لما خلق له، وإرشاده إلى ما يصلح في معيشته ومطعمه ومشربه، ومنكحه وتقلبه وتصرفه(١).

ومن أسماء الله الحسنى الهادي سبحانه وتعالى الذي يُبصّر عباده ويعرّفهم طريق الإيمان به والإقرار بألوهيته ومعرفة طريق بناء الحياة ومعرفة نواميسها وسننها حتى هدى الطيور والحيوانات والهوام والوحوش إلى ما فيه مصالحها وعيشها ومحاذرة ما يضرّها أو يُعْطِبُها. وقد جاء اسم الهادي في القرآن الكريم في قوله سبحانه: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]، وقوله: ﴿وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:٥٤].

إنها هداية المعارف الفطرية الضرورية لكل مخلوق ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه:٥٠].

وهي ثانيًا: هداية الإرشاد والبيان التي بعث بها أنبياءه وأنزل بها كتبه ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [السجدة:٢٤].

وثالثًا: الأخذ بالقلوب والعقول إلى مواضع رضاه بالتوفيق والإلهام والحفظ، كما وعد سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس: ٩]، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩]. وهو منزل الكتاب الذي من تركه ضاع في بيداء الحياة ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله(٢). وقد نبّه العلماء على كثير من هداية الله لمخلوقاته وكتبوا في ذلك كتبًا نافعة، فتحدثوا عن هداية الله للنمل وللهدهد والنحل وغيرها من مخلوقات الله الكثيرة، وهذا باب واسع يكفي فيه قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ

(١) دار السعادة (١/ ١٠٩)، شفاء العليل صـ ٧٨.
(٢) مع الله، الاسم الأعظم صـ ٢٨٠.

﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وهذه الأمم تعبد الله وتسبحه وتحمده، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ومثل قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور:٤١]، وتأمل معي في كل من:

١- **النحل**: قال تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۞ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩]. فانظر إليها وإلى اجتهادها في صنعة العسل وبنائها البيوت المسدّسة التي هي من أتمّ الأشكال وأحسنها استدارة وأحكمها صنعًا، وتلك من أثر صنع الله وإلهامه إياها وإيحائه إليها ثم انظر كيف أدّاها حسن الامتثال إلى أن اتخذت البيوت أولًا، فإذا استقر لها بيت خرجت منه، فرعت وأكلت من الثمار، ثم آوت إلى بيوتها، لأن ربها سبحانه أمرها باتخاذ البيوت أولًا ثم بالأكل بعد ذلك ثم إذا سلكت سبل ربها مذلّلة لا يستوعر عليها شيء، ثم ترعى ثم تعود، ومن عجيب شأنها: أن لها أميرًا يسمى «اليعسوب» لا يتم لها رواح ولا إياب، ولا عمل ولا مرعى إلا به، فهي مؤتمرة لأمره، سامعة له مطيعة، وله عليها تكليف وأمر ونهي، وهي منقادة لأمره، متبعة لرأيه يدبّرها، كما يدبّر الملك أمر رعيته، حتى إنها إذا آوت إلى بيوتها وقف على باب البيت فلا يدع واحدة تُزاحم الأخرى ولا تتقدم عليها في العبور، بل تعبر بيوتها واحدة بعد واحدة بغير تزاحم ولا تصادم ولا تراكم، كما يفعل الأمير إذا انتهى بعسكره إلى معبر ضيق لا يجوز إلا واحد واحد، ومن تدبر أحوالها وسياساتها وهدايتها واجتماع شملها وانتظام أمرها وتدبير ملكها، وتفويض كل عمل إلى واحد منها، يتعجب منها كل العجب، ويعلم أن هذا ليس في مقدورها ولا هو من ذاتها، فإن هذه أعمال محكمة متقنة في غاية الإحكام والإتقان، فمن الذي أوحى إليها أمرها، وجعل ما جعل في طباعها، ومن الذي هداها لشأنها؟ ومن الذي أنزل لها من الطّل ما إذا جنته ردّته عسلًا صافيًا مختلفًا ألوانه في غاية الحلاوة واللذاذة والمنفعة[1]؟ إنه ﴿**الَّذِي**

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٠٩،٣١٠).

﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾.

٢- **الهدهد**: ومن هدايته ما حكاه الله عنه في كتابه أن قال لنبي الله سليمان وقد فقده وتوعده فلما جاء بدره بالعذر قبل أن ينذره سليمان بالعقوبة، وخاطبه خطابًا هيجه به على الإصغاء إليه والقبول منه، ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾، وفي ضمن هذا أني أتيتك بأمر قد عرفته حق المعرفة بحيث أحطت به وهو خبر عظيم له شأن فلذلك قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾، والنبأ هو الخبر الذي له شأن والنفوس متطلعة إلى معرفته، ثم وصفه بأنه نبأ يقين لا شك فيه ولا ريب، فهذه مقدمة بين يدي إخباره لنبي الله بذلك النبأ استفرغت قلب المخبر لتلقي الخبر، وأوجبت له التشويق التام إلى سماعه ومعرفته، وهذا نوع من براعة الاستهلال وخطاب التهييج، ثم كشف عن حقيقة الخبر كشفًا مؤكدًا بأدلة التأكيد، فقال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾، ثم أخبر عن شأن تلك الملكة وأنها من أجلّ الملوك بحيث أوتيت من كل شيء يصلح أن تؤتاه الملوك، ثم زاد في عظيم شأنها بذكر عرشها الذي تجلس عليه وأنه عرش عظيم ثم أخبره بما يدعوه إلى قصدهم وغزوهم في عقر دارهم بعد دعوتهم إلى الله فقال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ﴾. وحذف أداة العطف من هذه الجملة وأتى بها مستقلة غير معطوفة على ما قبلها إيذانًا بأنها المقصودة وما قبلها توطئة لها، ثم أخبر عن المغوي لهم الحامل لهم على ذلك وهو تزيين الشيطان لهم أعمالهم حتى صدهم عن السبيل المستقيم وهو السجود لله وحده، ثم أخبر أن ذلك الصد حال بينهم وبين الهداية والسجود لله الذي لا ينبغي السجود إلا له، ثم ذكر من أفعاله سبحانه إخراج الخبء في السموات والأرض، وهو المخبوء فيهما من المطر والنبات والمعادن وأنواع ما ينزل من السماء وما يخرج من الأرض، وفي ذكر الهدهد هذا الشأن من أفعال الرب تعالى بخصوصه إشعار بما خصه الله به من إخراج الماء المخبوء تحت الأرض، قال صاحب الكشاف: وفي إخراج الخبء إمارة على أنه من كلام الهدهد لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض وذلك بإلهام من يخرج الخبء في السموات والأرض- جلت قدرته ولطف علمه- ولا يكاد يخفي على ذي الفراسة، الناظر بنور الله مخايل كل شخص بصناعة أو فن من العلم في روائه ومنطقه وشمائله، فما عمل آدمي عملًا إلا ألقى الله عليه رداء عمله[1].

(١) العقيدة في الله صـ ١١٦.

سادسًا: دليل انتظام الكون وعدم فساده:

وانتظام أمر العالم، العلوي والسفلي، وارتباط بعضه ببعض، وجريانه على نظام محكم، لا يختلف ولا يفسد أدلّ دليل على أن مدبّره واحد لا إله غيره[1].

قال تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ [الأنبياء:٢٢]، لو كان في السموات والأرض آلهة تصلح لهم العبادة سوى الله الذي هو خالق الأشياء وله العبادة والألوهية التي لا تصلح إلا له «**لَفَسَدَتَا**» أي:لفسد أهل السموات والأرض[2].

وقال تعالى: ﴿**مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ [المؤمنون:٩١].

يقول تعالى ذكره: ما لله من ولد ولا كان معه في القديم أو عند خلقه الأشياء مَنْ تصلح عبادته، إذن لاعتزل كل إله منهم بما خلق من شيء فانفرد به ولتغالبوا، ولعلا بعضهم على بعض، وغلب القوي منهم الضعيف، لأن القوي لا يرضى أن يعلوه الضعيف، والضعيف لا يصلح أن يكون إلهًا، فسبحان الله ما أبلغها من حجة وأوجزها لمن عقل وتدبر[3]. وهكذا فإن دليل انتظام الكون وعدم فساده دليل عقلي قوي على وحدانية الله، لا تملك العقول السوية ردّه، وهي ترى انتظام أمر السموات والأرض وما فيهن، مما يدل على وجود إله واحد متفرد بالخلق والتدبير، مما يستوجب صرف العبادة له دون سواه[4].

سابعًا: دليل التقدير:

قال تعالى: ﴿**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا**﴾ [الفرقان:٢]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ [القمر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿**وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ**﴾ [الرعد: ٨]، وظاهرة التقدير تبدو في كل ما خلق الله عز وجل في الأرض والسماء والإنسان والنبات والحيوان، فقد نظم الله أجزاء هذا الوجود على أحسن نظام وأدلّه على كمال قدرة خالقه وكمال عمله

(١) الصواعق المرسلة لابن القيم (٣/ ٤٦٤).
(٢) تفسير الطبري (١٧/ ١٣).
(٣) المصدر نفسه (١٨/ ٤٩).
(٤) الدلالة العقلية في القرآن صـ ٣١٤.

وكمال حكمته وكمال لطفه[1].

ثامنًا: دليل التسوية:

قال تعالى: ﴿**أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا ۞ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا**﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨] وقال تعالى: ﴿**صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ [النمل: ٨٨] وقال تعالى: ﴿**الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ**﴾ [السجدة:٧].

والتسوية: إحسان الخلق، وإكمال الصنعة بحيث يكون المخلوق مهيئًا لأداء وظيفته وبلوغ كماله المقدَّر عنه وجعله مستويًا معتدلا متناسب الأجزاء بحيث لا يحصل تفاوت يخلّ بالمقصود[2]منها وإذا تأملنا في مظاهر التسوية في الإنسان تبدو في كل عضو من أعضائه فقد أحسن الله خلقه كما قال تعالى: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾ [التين: ٤] منتصب القامة سويَّ الأعضاء حسنها[3]، كما قال سبحانه في موضع آخر: ﴿**الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۞ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ**﴾ [الانفطار: ٧، ٨]، وإن الجمال والسواء والاعتدال ليبدو في تكوين الإنسان الجسدي والعقلي والروحي، وكل ذلك يتناسق في كيانه في جمال واستواء الأجهزة العامة لتكوين الإنسان الجسدي، كالجهاز العظمي والجهاز العضلي والجهاز الهضمي والجهاز التنفسي...إلى غير ذلك من أجهزة الجسم المتعددة، كل منها عجيبة، لا تقاس إليها كل العجائب الصناعية التي يقف الإنسان مدهوشًا أمامها وينسى عجائب ذاته، وهي أضخم وأعمق وأدق بما لا يقاس[4]. وخلق الإنسان على هذه الصورة السويّة المعتدلة أمر يستحق التدبر الطويل؛ لأنه خلق لا يملك العقل حياله إلا الإقرار بعظمة الله والشكر له بأن أكرمه بهذه الخلْقة وقد كان قادرًا أن يركبه في أي صورة أخرى يشَاؤها[5].

***

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٥٩).
(٢) المدخل إلى الثقافة الإسلامية، أحمد جلي صـ٧٥.
(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٩٦)
(٤) الدلالة العقلية في القران صـ٢٩٤.
(٥) المصدر نفسه صـ٢٩٤.